﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

[العنكبوت: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من ذِكْرِ عمومِ الرزق إلى أعظم أسبابه

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة أمْرَ الرّزق وبَسْطَه على العباد وتضييقَه، وقبل ذلك ذكر خلق السماوات والأرض، وتسخير الشّمس والقمر، أتْبَعَه هنا ببيان سبب ذلك الرّزق ومصدره، وهو الماء النّازل من السّماء، فلمّا سألهم عن الخلق وبيّن أمر رزق الخلائق؛ أتبع ذلك بالسّؤال عن الرّزق ليعترفوا به كما اعترفوا بالخلق[1]، فإنّ الاعتراف بسبب الرّزق وهو الماء النّازل من السّماء، يستلزم الاعتراف بالمسبِّب أيضًا وهو الله تعالى[2]، فهو انتقالٌ من ذكر عمومِ الرزق، إلى ذكر أعظم أسبابه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَوْتِهَا﴾: (موت) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ذَهابِ الْقُوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ، ومِنْهُ الْمَوْتُ: خِلافُ الْحَياةِ[3]، والمَواتُ: الأرض التي لا مالكَ لها من الآدميّين، ولا ينتفع بها أحد، والمَوَتان: خلاف الحيَوان، يُقال: اشترِ المَوَتانَ ولا تشترِ الحيوان، أي: اشترِ الأرضَ والدّورَ ولا تشترِ الرّقيقَ والدّوابَّ، والمَوَتانُ من الأرض: التي لم تُحْيَ بعد[4]، والموت أنواعٌ بحسب أنواع الحياة، ومنها: ما هو بإزاء القوّة النّامية الموجودة في الإنسان والحيوان والنّبات، نحو قوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾

(1) المراغي، تفسير المراغي: 21/ 18.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 472.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موت).
(4) الجوهري، الصحاح: (موت).

[ق: 11][1]، والمراد بموت الأرض في الآية الكريمة أنّها كانت يابسة لا حياة بها[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاعتراف والإقرار بوحدانية منزّل الماء من السّماء

تُخبر الآية الكريمة عن حقيقة من الحقائق الثّابتة التي تُظهِر تناقض المشركين، فإنّك لو سألت المشركين عن الفاعل الذي نزّل من السّماء ماء طيّبًا مباركًا فأنبت به الأرض وأحياها بسببه بعد جفافها ويَبَسها، فإنّهم بلا تردّد سيقولون على سبيل الاعتراف والإقرار: اللّه وحده هو الذي نزَّل ذلك، فيأمر اللّه تعالى النّبيّ ﷺ بأن يعلن ثناءه على اللّه تعالى؛ لإظهار الحجّة عليهم وفضح تناقضهم، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعقلون هذا التّناقض الحاصل منهم، فهم يقولون بأنّ الخالق الموجد المحيي الرازق هو اللّه، ثمّ يقولون بألوهيّة غير اللّه، فيخالف فعلُهم أقوالَهم، ولو لم يكونوا جاهلين لما أشركوا مع اللّه غيره[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها الترابطية:

حشدُ الحُجَج لكشف شدّة ضلال المشركين

عطف النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ على الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ لجمع الأدلّة وربطها ببعض، وقد أعاد الرّبط بالأسلوب ذاته، فأعيد السّؤال والجواب لذلك، والغرض من ذلك إقامة الحجّة عليهم بمزيد من التّأكيد[4].

نوعُ اللّام ودلالتُها:

اللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (موت).
(2) القنوجي، فتح البيان: 7/ 267.
(3) مجموعة من الباحثين، التفسير الميسر: 1/ 403.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 28.

هي اللّام الموطّئة للقَسَم، وهي الدّاخلة على (إن) الشرطيَّة، توطئةً لقسمٍ تأكيديٍّ على معنى يُراد تحقيقه.

بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

السّؤال عن الحقائق غير المُنكَرة مُظهِرٌ تناقضَ المشركين

آثر النّظم الكريم التّعبير بالجملة الشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ وذلك لبيان تعلّق جوابهم بالسّؤال تعلّقًا متلازمًا، فيُفصِح عن أنّهم لا ينكرون أنّ الله تعالى هو منزل الماء من السّماء؛ إذ لا يصلح أن يكون الفاعل لهذه الأفعال الضّخام غير الله تعالى، فيخبر الله تعالى أنّ المشركين عند سؤالهم عن ذلك فإنّ جوابهم لن يكون إلّا الإقرار بالله تعالى فاعلًا لها[1]، فلا يستطيعون الإنكار بوجه، فالتّعبير بالجملة الشّرطية يدلّ على أنّهم مقرّون بالرّبوبيّة لله تعالى، فيقع التّعجيب من حالهم في تناقضهم فيما وراء ذلك.

نكتة استعمال أداة (إن):

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ(إن) الشّرطيّة دون (إذا) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وذلك لأنّ (إن) أنسب بما يَرِدُ على سبيل الافتراض.

تعيين مرجع الضّمائر:

توجيه النّبيّ ﷺ لإلزام الكافرين بما يقرّون

عبّر النّظم الجليل بضميرَي المخاطب والغائب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، والخطاب للنّبيّ ﷺ، والمراد بالضّمير الغائب المشركون، فهو إخبار من الله تعالى بأن يسأل النّبيّ ﷺ المشركين عمّن نزّل من السّماء ماء[2]، ليضطرّهم إلى التّقرير والإلزام.

دلالة الاستفهام باسم ﴿مَّن﴾:

عبّر النّظم الجليل باسم الاستفهام ﴿مَّن﴾ في قوله جلّ شأنه:

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 236.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 26.

إقامة الحجَّة عند إيراد السّؤال وإثبات البرهان عند صدور الجواب

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وذلك للسّؤال عن الفاعل لهذه الأفعال الضّخام من إنزال الماء من السّماء، فالمراد من الاستفهام تقرير الفاعل[1]، وتعيين منزل الماء من السَّماء؛ لإقامة الحجّة عند إيراد السؤال، وإثبات البرهان عند صدور الجواب.

بلاغةُ الاستفهام وغرضُه:

السّؤال الموصل لمقصود السّائل استدلالٌ لا استفهام

عبّر النّظم الجليل بأسلوب الاستفهام لتقرير الكافرين بالفاعل في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، فالاستفهام دالٌّ على التّقرير؛ وذلك لأنّ المسؤولين لا يمكن لهم أن يجيبوا بخلاف ما يعرفون، والسّائل يعرف أنّهم لا يملكون مدافعة ذلك السّؤال إلّا بالجواب بما قَرَّ في أنفسهم، وفائدة ذلك إلزامهم بالاعتراف على بطلان معتقدهم؛ للوصول إلى الحقِّ المبين فيما يصدر عنهم من الأقاويل.

نكتة التّعبير بالفعل المضعّف:

آثر النّظم الكريم التّعبير بفعل ﴿نَّزَّلَ﴾ على وزن (فعّل) في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ للدّلالة على تكثير إنزاله ذلك الماء من السَّماء.

دلالة تقييد فعل تنزيل الماء:

إنزالُ الماء من السّماء محضُ نعمةٍ لا يدّعيها المبطلون

قَيَّدَ النّظمُ الجليل تنزيلَ الماء بكونه آتيًا من جهة السّماء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ وذلك لأنّ إنزال الماء من السّماء مختصّ باللّه تعالى، لا يستطيع أحدٌ من الطّغاة أن يدّعيه لنفسه، و﴿مِنَ﴾ دالّة على الابتداء، أي ابتدأ إنزاله من جهة العلوّ[2]، كما أنّ تقييده بذلك يبيّن أنّه مَحْضُ إنعامٍ منه تعالى، فيكون ألْزَمَ لهم بالاعتراف.

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 236.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 472.

نكتة تنكير ﴿مَآءَ﴾:

نُكِّر لفظ الماء في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا له، فالماء النّازل من السّماء مصدرُ حياتهم، ومُنْبِتُ كلأهم.

نوع الفاء ومعناها:

إحياء الأرض بماء المطر متحقّقٌ بعد نزوله

عطف النّظم البليغ إحياء الأرض على إنزال الماء من السّماء في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالفاء العاطفة[1]، وذلك للدّلالة على أنّ إحياء الأرض مترتّب على نزول الماء، وأنّه يقع بعده وشيكًا، وأنّه مسبَّبٌ عنه.

نوعُ الباء ودلالتُها:

الماء النّازل من السّماء سببُ إحياء الأرض

استعمل النّظم الجليل حرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وهو دالّ هنا على السّببيّة، أي أنّ الأرض تكون حيّة بسبب هذا الماء النّازل من السّماء[2]، وجَعْلُ نزولِ الماء سببًا لإحياء الأرض يدلُّ على عظيم الإنعام بذلك الماء.

نكتة تقديم القيد على المفعول:

إحياءُ الأرض المَيْتَةِ غايةُ إنزال الماء من السّماء

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة من الجارّ والمجرور على المفعول به في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ دون أن يقول: (فأحيا الأرض به)؛ وذلك للدّلالة على التّخصيص بالتّغليب، فإنّ أكثر الأرض يُحيى بماء المطر بلا تدخّل النّاس بالسّقي[3]، فإنّ تلك الأراضي الكثيرة إنّما نبتت بماء المطر، فغلّبه على غيره فاستقام التّخصيص بتقديم الجارّ، والماء الذي يسقي به النّاس أراضيهم مصدره ماء السَّماء، فالمَرَدُّ واحد.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 15.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 473.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 473.

نوعُ ﴿مِنۢ﴾ ودلالتُها:

بدأ الإنبات بعد تحقّق موت الأرض وخلوّها عن النّبات

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ وهو هنا دالّ على الابتداء، وذلك للدّلالة على قرب زمان الإنبات من زمان الممات، فعادت الأرض خضراء بعد مماتها[1]، أي: وقع الإنبات والإحياء ابتداءً من بعد تحقُّق موتها، وهذا أبلغ في الامتنان؛ لتحقق موت الأرض، وهو ما يُعين على تثبيت دلائل البعث، بالإيماء والإشارة.

توجيه المتشابه اللفظي:

سياق التّقرير والاستدلال يقتضي زيادة التّأكيد

انفردت الآية بدخول حرف الجرّ ﴿مِنۢ﴾ على الظّرف ﴿بَعۡدِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾، وقد جاءت الآيات الأخرى خالية منه، كما في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [البقرة: 164]، و[النحل: 65]، و[الجاثية: 5]، وكما في قوله تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: 24]، فزاد ﴿مِنۢ﴾ في آية سورة العنكبوت؛ لأنّ السّياق جاء في تقرير هذه النّعمة، فاقتضى المقام التّأكيد بزيادتها إلجاءً لهم إلى الإقرار بأنّ فاعل ذلك هو الله تعالى دون أصنامهم[2]؛ فهي سياق الاستدلال، وللاستدلال اعتبارات خاصّة، لا سيما إذا اقترن بالإشارة إلى أمر البعث.

بديعُ فنّ الإدماج:

نزول الماء آية وهي دليل تمثيليّ على البعث

أدمج النّظم الجليل الاستدلال على إحيائه الأرض باستدلاله على انفراده بتنزيل الماء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾، فلمّا اعترفوا بأنّ سبب الإنبات هو المطر، وهو منزَّلٌ من عند الله؛ فإنّه يلزمهم أنّ الإنبات كذلك من الله تعالى، والغرض من هذا الإدماج الاستدلال على البعث من خلال تقريبه بصورة إحياء الأرض بالمطر[3].

(1) الخطيب، السراج المنير: 3/ 152.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 29.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 28.

بديعُ فنِّ الطّباق:

الإيماء إلى حياة القلوب بالوحي كما هي حياة الأرض بالماء

جمع النّظم الجليل بين لفظَي السّماء والأرض في قوله جلّ شأنه: ﴿نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ للطّباق بينهما، والطّباق إيجابيّ، والغرض منه: تبيينُ فخامةِ التّسخير وعِظَم الإنعام عليهم بما في الأرض والسّماء، ولبيانِ العلاقة بين السماء والأرض، فالماء نازل من السماء كما أنَّ الوحي كذلك نازل من السماء، والأرض تحيا بالماء؛ كما أنَّ النفوس تحيا بالوحي.

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة:

إنبات الأرض من بعد قَفْرِها كبعث البشريَّة من بعد مَوْتها

استعار النّظم الجليل لفظ الإحياء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ للإنبات، فشبّه إنبات الأرض بإحياء الميت يوم القيامة للبعث والحساب، على سبيل الاستعارة التصريحيّة التَّبعيَّة، بجامع الحركة والنّماء فيهما، وموت الأرض استعارة لخلوّها من النّبات، فشَبَّه خُلوَّ الأرض من النبّات بموت الأحياء، فالاستعارة تصريحيّة، والجامع بينهما انعدام النّفع بكلٍّ منهما[1].

بلاغة الاستعارة المكنية:

للاستعارة وظائف في تثبيت عقيدة البعث في نفوس المخاطبين

في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ استعارة مَكْنيَّة أصليَّة، حيث شبَّه الأرض بالشخص الميت الذي يُحييه الله تعالى يوم القيامة، ثم ذكر لازمًا من لوازم ذلك وهو الإحياء بعد الموت، وهذا لا يكون للأرض، وغرض الاستعارة تقريب صورة البعث للمنكرين؛ فإنَّ من يُقرُّ بإنبات الأرض فعليه أن يُقِرَّ بإحياء الموتى، فلا فرْقَ في ذلك في قدرة الخالق المسخِّر سبحانه وتعالى.

نوعُ اللّام ودلالتُها:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ هي لام جوابِ القسم المحذوف، والتّقدير: (واللّه ليقولنّ)[2].

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 236 - 237.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 14.

نكتة توالي المؤكّدات:

عجيبُ شأنِ المُنكِرِ عند إقراره بالحقائق المناقضة لإنكاره

أكّد النّظم الجليل الجملة الفعليَّة: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بالقسم واللّام ونون التّأكيد للدّلالة على تحقّق مضمون الخطاب، فإنّ قولهم لا شكّ في أنّه سيقع حال سؤالهم؛ فهم يعترفون بأنّه الموجِد لكلّ شيء، وقد أثارت هذه المؤكِّدات العجبَ من حالهم، فهم مع شديد اعترافهم بهذه الحقائق؛ يُسارعون إلى إنكار مقتضاها من التَّوحيد وإرساء العبوديّة الحقَّة في نفوسهم، واتباع سيِّد الخلق.

الوظيفة النّحويّة لجملة جواب القسم:

بلاغةُ القرآن في إيجازِه الدّالِّ على اكتنازه

جاءت الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ للدّلالة على ما وقع عليه القسم، وهو إقرارهم وقولهم بأنّ الله تعالى هو الفاعل، فالجملة جواب للقسم المقدّر، كما أنّ هذه الجملة لها وظيفة أخرى، وهي الإفصاح عن جواب الشّرط المحذوف، فاكتفى النّظم بجواب القسم، واستغنى عن جواب الشّرط لظهور المراد[1].

نكتة فصل الجملة:

بعد بيان الاستدلال يأتي ما يوجبه من الثناء والابتهال

فصل النّظم الجليل جملة: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ لأنّها مستأنفة، فلمّا بيّن بإقرارهم أنّه الخالق ومحيي الأرض بعد موتها، استأنف لبيان استحقاقه الحمد على ذلك الخلق وتلك النّعم، لا الكفر والجحود، فهو انتقالٌ من الاستدلال إلى ما يوجبه الاستدلال، بقصد بيان ما عليه أهل الأوثان، من نقيض الواجب، وما يستحقُّه الموجد سبحانه.

غرضُ الأمر ودلالتُه:

من مقتضيات الإعراض عن الباطل توجيه الثّناء للحقّ

افتتح النّظم الجليل جملة: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ بفعل الأمر ﴿قُلِ﴾؛ للدّلالة على وجوب حمده تعالى، مع الإعراض عن المشركين؛ فإنَّ مقتضى العناد على الباطل، ترك المعاند وشأنه، والالتفات إلى الواجب الضروري، كما أنّ فعل القول يدلّ على أنّ المراد إعلان تلك

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 14.

المحامد والهتاف بها على المسامع تعليمًا وإرشادًا للمؤمنين، وتقريعًا وتوبيخًا للكافرين.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

عرّف النّظم الجليل لفظ الحمد بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ وهي هنا دالّة على الجنس، أي إنّ جنس الحمد لله، فيشمل جميع المحامد، فقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ محيط بأوصاف الكمال والثّناء كلّها[1].

كـلّ المحامد مستحقّة لله تعالى دون سواه

نكتة التّعبير بالاسميّة:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالجملة الاسميّة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ دون الفعلية: (أحمَدُ اللّهَ)؛ للدّلالة على ثبوت الحكم وتأكيده، فجعل ذلك حقيقة ثابتة من شأنه أن يُخبَر عنها.

معنى اللّام في: ﴿لِلَّهِۚ﴾:

(اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ دالّة على التّخصيص والاستحقاق، فالحمد مختصّ بالله تعالى، وهو استحقاق واجب له.

غرض تقديم المسند إليه:

قدّم النّظم الكريم المسند إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ على المسند للدّلالة على حصر الحمد وتخصيصه به تعالى[2]، فلفظ الحمد يشمل ويستغرق جميع المحامد، ثمّ يأتي الحكم بأنّ كلّ هذه المحامد هي لله تعالى على وجه الاستحقاق والحصر، مع ما فيه من التَّعريض بالمعبودات التي يتوجّه إليها المشركون، فيوجِّهون لها الثناء الباطل والحمد الكاذب، فيلزم صنيعهم التشنيع الوافر، والتبشيع الحاضر.

التَّعريضُ بمن يتوجَّه للأصنام بالثناء الباطل والحمد الكاذب

نكتة حذف متعلّق الحمد:

حذف النّظم الحكيم متعلّق الحمد في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 473.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 29.

الحمدُ مستحقٌّ لله في الأمور كلِّها

﴿لِلَّهِۚ﴾ حيث لم يقل: (الحمد لله على ذلك)[1]؛ وذلك طلبًا للإيجاز، ولظهور المعنى، ولتعميم متعلِّق الحمد، فالحمد متعيِّن لله تعالى على كلّ شيء، فيدخل فيه المذكور في السياق وما سواه، فيكون الحذف للإطلاق والتّعميم.

نوعُ الإضراب وفائدتُه:

الانتقال من الحمد الواجب إلى الذَّم الثابت

آثر النّظم الكريم استعمال حرف الإضراب في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، وهو إضراب انتقاليّ، فانتقل من الحمد على وضوح الحُجَج وقيام الحقّ، إلى ذمّ المشركين بأنّهم لا يتفطّنون لتلك الحجج الواضحة، فصاروا كأنّهم لا عقل لهم؛ وذلك أنّ وضوح البراهين والإقرار بها يقتضي اتّباع نتائجها، فلمّا لم يفعلوا حكم عليهم بأنّهم لا عقول لهم[2]، فالغرض من الإضراب سلب العقول عن المشركين والحكم عليهم بالجهل.

نكتة استعمال مفردة بالأكثريَّة:

قيم الهداية مبثوثةٌ في الألفاظ المختارة والكلمات المنتقاة

أسند النّظم الكريم انتفاء العقل إلى أكثرهم دون لفظ (كلّهم) أو (جميعهم) في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ وذلك لأنّ فريقًا منهم قد وضحت لهم البراهين فآمنوا، ولكنّ أكثرهم أصرّوا على الكفر[3]، فجاء الخبر عن الأكثرية تعبيرًا عن الواقع، وهو إنصاف من القرآن الكريم قد دأب عليه، ما فيه من بناء قيم الهداية؛ فلو قال: (بل كلهم لا يعقلون)؛ لحكم عليهم بالضَّلال المبين، وهو ما يدعو إلى الإياس والتعجيز.

نكتة توسّط النّفي بين المسند إليه والمسند الفعليّ:

وسّط النّظم الجليل النّفي بين المسند إليه والمسند الفعليّ في قوله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 30.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 30.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 30.

جلّ شأنه: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وذلك للجمع بين دلالتين: الثّبوت وهو مدلول افتتاح الجملة بالمسند إليه، وتجدّد النّفي واستمراره، وهو دلالة دخول النّفي على المسند الفعليِّ، فدَلَّ على ثبوت المعنى وتجدُّدِه؛ فإنّ أكثر المشركين استمرّوا بمنافاة العقل واتّباع الهوى والإصرار على الكفر.

ثبوت الجهل في المعاندين أصالةً واستمراره حال كفرهم

دلالة التّعبير بمفردة ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ مادّة وصيغة:

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ العقل في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وذلك للدّلالة على انتفاء قدرتهم على تقبّل العلم، فالعَقْل يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ[1]، فلمّا لم يتفطّنوا لتلك الحجج وهي واضحة، وكان العقل يقتضي التّفطّن لها من كلّ ذي عقل؛ حكم عليهم بانتفاء العقل[2]، وعبّر عن ذلك بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على استمرار انتفاء العقل عنهم وتجدّد جهلهم.

انتفاء الانتفاع بالعلم متجدّد في الغافلين

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العقل والفقه:

الفِقْهُ: الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ والفهمُ لَهُ[3]، وهو التّوصُّل إلى علم غائبٍ بعلم شاهد، فهو أخصّ من العلم، قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨﴾ [النساء: 78][4]، وهو وصول إلى حقيقة باطن الشيء، كالعلم بالشيء وفهمِه فهمًا عميقًا مستوعبًا، وقد فقِه الشيءَ كأنّما غاص في داخله فأدرك دقائقه وخفاياه[5].

الفقه توصّل للعلم وإدراك دقيق له، والعقل قيدٌ للعلم للانتفاع به

أمّا العقل: فأصله من الحَبْس، يقال: عقلتُ البعير أعْقِله عَقْلًا:

(1) الراغب، المفردات: (عقل).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 30.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(4) الراغب، المفردات: (فقه).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فقه).

قيَّدْته بما يحبسه عن الانبعاث، وسُمّي عقل الإنسان عقلًا؛ لأنه يمنعه ويحبسه عن محذوراتٍ[1]، والعَقْل يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ[2]، وقد عبّر النّظم الجليل بلفظ العقل في الآية للدّلالة على انتفاء قدرة الانتفاع بما علموا، فلم يتفطّنوا لما يقتضيه ذلك العلم والإقرار.

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (عقل).
(2) الراغب، المفردات: (عقل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»